

أسرار الحروف في القرآن الكريم ❁

كها / زينب عقبان

أستاذة مساعدة - كلية العلوم الإسلامية

- جامعة الجزائر-



مقدمة:

القرآن الكريم كلمات انضم بعضها إلى بعض وجمل جمعت فشكلت آيات، وآيات جمعت في سور، وسور جمعت في مصحف شرف واحد⁽¹⁾.

دلالة الحروف في القرآن الكريم: ولكل منها دلالات لغوية، وصوتية، واجتماعية، وغيرها من سائر الدلالات، ونركز في هذا المقال على بعض الدلالات الصوتية في القرآن الكريم، إذ حضيت ألفاظ القرآن الكريم المبجلة بالعناية والتشريف لما تحمله من إيماءات ودلالات وأصداً وتأثيرات متنوعة.

وإذا كنا نقرأ القرآن الكريم فتصادفنا الألفاظ الكثيرة الشديدة الإيحاء، والعميقة الدلالة والبعيدة الأصداً، فإننا لا نستطيع تحمل شوق تأثيراتها وفهم كنهها، وترصد المجالات والمفاهيم والمعاني التي تحوم حولها، والظلال التي تشع منها، حتى نخط رحالنا سالمين غافمين. ومن بين الدلالات التي ذكرها العلماء:

1- حرف الفاء ودلالته في القرآن الكريم:

لهذا الحرف القرآني صدى ودلالة تقفز بالمشاعر قفزا، وتنبه الخاطر تنبيها واضحا لما جهلت عليه من التالي والتتابع البين والجلي في آيات⁽²⁾ الذكر ويمكن لنا أن نستشف ونستخلص ذلك من خلال الآية الآتية:



قال عز وجل: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾
(الكهف:45)

نلاحظ التعاقب الموجود الذي يصك السمع في دلالة وقوع الأمر دون حائل وبلا فاصل تعبيراً عن الخسران النهائي، والحرمان المتواصل دفعة واحدة، وهنا تلتقي الدلالة الاجتماعية بما يستفاد من معنى لغوي⁽³⁾.

يؤكد هذا التوالي بالفاء العاطفة تواليا في النفس يحدثه سرعة الإيقاع، وعدم الانتظار، مما يوحي للسمع والذهن كأنه كتلة واحدة انصهرت موادها كقوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ (البقرة: 266)

وفي مثال سورة الكهف ضرب الله عز وجل مثلاً للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال، والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافيا غزيراً، وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه بماء نزل من السماء فخرج حتى صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال⁽⁴⁾.

فالفاء إذا تحمل في طياتها معنى سرعة فناء الحياة الدنيا.

ومن الأمثلة التي ذكرها القرآن الكريم في ورود هذه الفاء سواء أكان الحرف عاطفاً أم رابطاً فإن له ثقلاً كبيراً في الوقع الموسيقي على الأذن.



- قال عز وجل: ﴿فَأَصَابَهُ، وَايِلٌ فَتَرَكَهُ﴾ (البقرة: 264).

- قال تعالى: ﴿لَمْ يُصِيبَهَا وَايِلٌ فَطَلَّ﴾ (البقرة: 265).

وهناك آية ذكرها العلماء لكثرة دلالاتها وعجيب تأليفها وكثرة جرسها، وتذكر في هذا الموضع حروف عطفها والمتمثلة في كثرة تتابع فلهاتها، وجميل نسقها الذي أحدثته هذه الفئات المعجزات، قال عز وجل: ﴿فَأَزْرَهُ، فَاسْتَقَاطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ (الفتح : 29).

فالتوالي هنا زيادة على جرسه السمعي يوحى إلى النفس نقطة الانتهاء من حقيقة الأمر حتى عاد واقعا دون شك ، مقترنا بالدلالة الايمانية في كشف تماسك هذه الجماعة وترابطها، وكذا الزرع في شدة أسرته، وقوة تشابكه⁽⁵⁾

في مثال آخر تظهر قوة الفاء في سورة الشمس في قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقَيْنَهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ (الشمس : 13-15) رواية حفص.

تتوالى هذه الفئات في هذه المواضع من الآيات القرآنية في سورة الشمس، لتبين سرعة وقوع الأحداث وكيفية تتابعها، ونلاحظ في قراءة حفص وجود الواو في الآية 15/ وفي قراءة ورش وجود الفاء.

نشهد مع الآية العظيمة توالي الأحداث الآتية: التكذيب فالعقر فالدمدمة لوقعها الخاص وهي من الألفاظ القرآنية ذات الدلالة المؤثرة.



دمدم: أطبق عليهم العذاب بذنبهم فأهلكهم، قال الفراء، وحقيقة الدممة: تضعيف العذاب، وترديده، ويقال: دمدمت على الشيء: أطبقت عليه، وفي الصحاح، ودمدمت الشيء، إذا ألزقته بالأرض، ودمدم الله عليهم، أي أهلكهم، ويقال: والدممة: الكلام الذي يزعج الرجل. وفي القاموس: ودمدم الأرض: سواها، وفلانا عذبه عذابا تاما، والقوم: أهلكهم: كدمدم، ودمدم عليهم⁽⁶⁾.

من الدلالات الصوتية وأسرار الفاءات القرآنية:

نكتشف فئات سورة المدثر في الآيات الأولى الخمس في قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيثُ ① قُرْآنًا ذَرِيرًا ② وَرَبِّكَ فَكَبِيرًا ③ وَيَأْتِيكَ فَظْهِرًا ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرًا ⑤﴾

(المدثر: 1 - 5)

اختلف العلماء في الحُل الإعرابي للفاء وقدروها تقديرات عدة لتعيين وضبط مكانها في النظم، ووقع الخلاف بين الزيادة والأصالة وهي تحوي سرا من أسرار البلاغة.

وقد ذهب الزمخشري في تفسيره الكشاف من أنها جواب شرط مقدر كأنه قيل: " وما كان فلا تدع تكبيره، وما كان فلا تدع طهارة ثيابك، وما كان فلا تدع هجر الرجز، فهذه الفئات المتعاقبة أحدثت جرسا خاصا في بناء الكلام، فالآيات تبدأ ببناء قوي مثير للانتباه استعمل فيه " يا " التي هي للبعيد، وتكرر فيه التنبيه عن طريق " ها " فالمقام مقام تنبيه قوي، فليس الوقت وقت تدثر ونوم.



إنّ هناك أمورا جليلة تستدعي التنبيه واليقظة وهي الإنذار والتبليغ مع ما يصحب ذلك من أوامر هامة، هي توجيهه إلى تكبير ربه وحده⁽⁷⁾ ربطت الفئات الكلام ربطا قويا مثلما يربط الجواب بالشرط، فجاء التعاقب على نحو معجز، تظهر علاماته في الجرس الصوتي، وقصر الآيات واتساق الفواصل المنتهية بحرف الراء الذي يحمل صفة من الصفات المهمة وهي صفة التكرار.

وليست الفاء في قوله سبحانه ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ (ص: 57)

بزائدة- بل هي آية ضمنت ثلاث جمل قصيرة، يوحى قصرها الخاطف بالرهبة في النفس والخوف، فالجملة الأولى مبتدؤها مذكور حذف خبره، فكأنه قال: هذا حق ثابت لا مرأى فيه، وكأنه يشير إلى تقدم من قوله (وهذا وإن للطاغين لشر مآب، جهنم يصلونها فلبئس المهاد).

ثم فرع على ذلك العذاب الذي أعد لهم قائلا: (فليذوقوه) ذكرا ضميرا يبعث في النفس ترقب تفسيره، ففسره بأن ما سيدوقونه حميم يحرق بحرّه، وغساق يقتل ببرده ولم يذكر العذاب الذي أعد لهم⁽⁸⁾.

وخرجه ابن هشام على أن خبر هذا حميم وغساق، لا الجملة الطلبية، وعليه فتأويل الآية: (هذا حميم وغساق، فليذوقوه) وإنما أسرع بالجملة الطلبية تهديدا لهم، وتشفيا منهم⁽⁹⁾.



حرف الواو: بعض دلالات حرف الواو في القرآن الكريم:

للواو دوره أيضا في التعبير القرآني فهو حرف عطف، ويعد من الروابط التي تجمع الأحداث وتضمها بعضها إلى بعض في تناسق عجيب⁽¹⁰⁾.

نذكر مفتتح سورة الانشقاق حيث يعرض القرآن الكريم صورا من التغييرات الكونية للسماء والأرض وانقيادهما التام لله تعالى في قوله جلّت قدرته: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ⑥ ﴾ (الانشقاق 1-7)

لقد ورد العطف في الآيات القرآنية لغرض بلاغي يتناسب ويتلاءم وبلاغة العطف في القرآن الكريم.

الواو في (وأذنت) وكذلك (وألقت) أصلية عاطفة، والجواب محذوف، وهذا يدعمه الاقتضاه النحوي بوجوهه المتعددة القوية... كما يؤيده السماع، فقد ذكر الفراء أنه لم يسمع جوابا بـ "الواو" في "إذا" مبتدأ- أي ابتدئ بها وليس قبلها شيء- وكذا يدعمه التذوق البلاغي لسر حذف الجواب⁽¹¹⁾.

نلاحظ هذه الدقة المتناهية في التعبير القرآني في استعمال بعض الأحرف، حيث جاء في العجائب للكرماني: قيل كيف جاء "يسألونك" أربع مرات بغير "واو".

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ٥ ﴾ (البقرة: 189)



2- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: 215)

3- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: 217)

4- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ (البقرة: 219)

ثم جاءت ثلاث مرات بالواو:

1- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: 219)

2- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ (البقرة: 220)

3- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ (البقرة: 222)

قلنا لأن سؤالهم عن الحوادث الأولى وقع متفرقا، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد، فجيء دلالة على ذلك⁽¹²⁾.

توضع الحروف في الجملة العربية ليؤدي مهمة خاصة، وتزداد خصوصية ودقة هذه المهمة في العبارة القرآنية بشكل جلي.

يقول عز وجل: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (الزمر: 71) وفي آية أخرى يقول تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (الزمر: 73) علل الزمخشري⁽¹³⁾ ذلك: (وقيل حتى إذا جاؤوها، جاؤوها وفتحت أبوابها، أي مع فتح أبوابها. وقيل أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة، فمتقدم فتحها بدليل قوله: (جنات عدن مفتحة



لهم الأبواب، فلذلك جيء بالواو كأنه قيل حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها).

تتمتاز الحروف العربية بأثرها الكبير في التنسيق والانسجام الوارد في العبارة القرآنية، فالدقة في الآية الأولى تشعر النفس بحكم الإيحاء - بانغلاق وانقباض في النفس، وفي الثانية بانسراح النفس وابتهاجها⁽¹⁴⁾.

رأي في الحروف الزائدة في القرآن:

إن لكل حرف دلالة فنية تدخل في عناصر الصورة، أو أجزاء الجملة، ففي قوله عز وجل: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30)**

يسوق رأي ابن هشام في (معنى اللبيب، وأنه لم يرتض زيادة (إذ) ورأي صاحب الكشاف الذي يذهب إلى أن (إذ) منصوبة بإضمار الذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا، وعليه فليست زائدة.

والربط بين الآيتين، هذه التي ذكرناها، والتي قبلها، وهي قوله عز وجل: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَآوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29)**



ويدل على أن الآيتين سيقتا في الخلق والتغيير والتبديل، فالخلق منصب على الأرض وما فيها، والسماء، وما فوقها، والتغيير والتبديل خاص باستخلاف الله آدم في الأرض⁽¹⁵⁾.

فلما فرغت الآية الأولى من تقرير وتوكيد خلق الله للأرض، ثم استوائه إلى السماء وتسويتها سبع سموات، خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حساب حاجات أهلها ومتطلباتهم.

لما فرغت الآية من تقرير ذلك كله، برز لون جديد من القدرة الإلهية، في كلمة (إذ) التي توحى بهذه المعاني والتي تسقط في روع القارئ، بأن يقف هنا قليلا، والتي تبعث في نفس محمد ﷺ أن يكون على وعي تام بأسرار الخلق وأسرار الخليقة التي انكشف بعضها أمامه بصنع ربه.

فكلمة (إذ) ضرورية في التركيب، لاشتمالها على دلالات لا تفهم بدونها، وسواء كانت منصوبة بالذكر محذوفة، أو قالوا: في الآية فإنها تبعث في النفس كل هذه التأملات⁽¹⁶⁾.

وكذلك أسلوب القرآن لا يسير على وتيرة واحدة بل يقف بين الحين والحين في الأخبار أو القصص وقفات في غاية في الفنية، وتدعو إلى التأمل العميق، ولعلك تتأكد من ذلك بنفسك، لو قرأت هذه الآية التي تذكر استخلاف الله آدم في الأرض، ورد الملائكة عليه، والآية التي تنتهي لم تذكر تعليم آدم أسماء المسميات، وعجز الملائكة عنها، والآية التي تنتهي بعلم آدم بالأسماء دون الملائكة فانظر بعد ذلك، فستجد القرآن يذكر (إذ) مرة ثانية في



مطلع هذه الآية الكريمة: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 34)

والتذكرة واستطاع حكمة ما وراء الخلق، وما وراء الخليقة فهي جزء ضروري في تركيب الآية، لها دلالتها التي تدخل في صميم فن القول، ويحيى تاليا لقصة آدم في صورة بقرة بني إسرائيل⁽¹⁷⁾.

ف نجد قصة بني إسرائيل تتصدر بكلمة (اذكروا) بعد النداء مباشرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ (البقرة: 40) وتحيى الثانية في قوله عز وجل: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: 47) وتحيى بعد ذلك كلمة (إذ) وحدها مجردة من كلمة (اذكروا) خمس عشرة مرة، في مطلع هذه الآيات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: 49)، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: 50)، ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: 51)، ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ (البقرة: 53)، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: 54)، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: 55)، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ



﴿ شِئْتُمْ رِغْدًا ﴾ (البقرة: 58)، ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ ﴾ (البقرة: 60)، ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ (البقرة: 61)، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ (البقرة: 63)، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ (البقرة: 67)، ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُءْهَا ثُمَّ فِيهَا ﴾ (البقرة: 72)، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (البقرة: 83)، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ ﴾ (البقرة: 84)، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ (البقرة: 93).

ثم تتولى قصة إبراهيم بعد ذلك، أو طرف من قصة إبراهيم، وتذكر كلمة (إذ) خمس مرات تحيي في مطلع هذه الآيات.⁽⁴⁸⁾

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (البقرة: 124)، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا ﴾ (البقرة: 125)، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ (إبراهيم: 35)، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ (البقرة: 127)، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة: 131).

فهل يتصور عاقل بعد ذلك أن الكلمة (إذ) زائدة في كل هذه الحالات؟ أو أن القرآن ذكر عاملها قليلا وحذفه كثيرا تمشيا مع طريقتة المعجزة في الذكر والحذف والإيجال؟



كما يمكن ذكر استعمال (إذا) في بعض الآيات القرآنية ومثال ذلك في قوله عز وجل (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) النازعات. نلاحظ دلالة إذا في الآية القرآنية الدالة على المفاجأة فيحدث ما أنكروه بسرعة فائقة.

(إنما تفيد القصر والتخصيص، أي زجرة واحدة، وليست أكثر من ذلك، وليست صعبة ولا مستعصية على قدرة الله سبحانه، والزجرة هي الصيحة التي يحدث بموجبها إحياء الموتى في قبورهم... والساهرة: الأرض البيضاء المستوية، وسميت ساهرة لأن سالكها لا ينام خوفا منها، ويظير النوم من أجفانه)⁽¹⁹⁾.

نين في هذا المضمار كيفية توالي استعمال الفاء وإذا ودلالتهما في سورة النازعات في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ (النازعات: 13-14) الفاء الفصيحة للتفريع ما يفيد قولهم "أينا لمردودون في الحفرة إذا كنا عظاما منخرة" من إحالتهم الحياء بعد البلى والفاء.

فتقرير الكلام: لا عجب في ذلك فما هي إلا زجرة واحدة فإذا أنتم حاضررون في الحشر.

وفاء (فإذا هم بالساهرة) للتفريع على جملة "إنما هي زجرة واحدة" و(إذا) للمفاجأة، أي الحصول دون تأخير فحصل تأكيد معنى التفريع الذي أفادته الفاء وذلك يفيد عدم الترتيب الزجرة والحصول في الساهرة⁽²⁰⁾.



والإتيان بإذا الفجائية للدلالة على سرعة حضورهم بهذا المكان عقب البعث، وعطفها بالفاء لتحقيق ذلك المعنى الذي أفادته (إذا) لأن الجمع بين المفاجأة والتفريع أشد ما يعبر به عن السرعة مع إيجاز اللفظ.

والمعنى: أن الله يأمر بأمر التكوين بخلق أجساد تحل فيها الأرواح التي كانت في الدنيا فتحصر في موقف الحشر للحساب بسرعة⁽²¹⁾.

يعرض القرآن الكريم صوراً من المتغيرات الكونية للسماء والأرض وجلال خلقه وعظيم سلطانه في آيات من الذكر الحكيم في مفتتح سورة الانشقاق.

قال عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَيْرًا ⑧﴾ (الانشقاق: 1-8) حصل خلاف بين العلماء بزيادة ولو (وأذنت) وذلك لتضارب الآراء حول جواب إذا المتكررة.

فهناك من قال بأصالة "الواو" على أنها عاطفة وهم كثرة واعتمدوا على وجوه مختلفة في جواب (إذا).

من بينها ما ذكره ابن جني: (من أن جوابها محذوف تقديره: عرف كل واحد ما صار إليه من ثواب أو عقاب⁽²²⁾).



وهذا ما بينه الطبري (في جامع البيان في كتابه معاني القرآن) وهو امتداد لرأي الفراء: في كتابه معاني القرآن ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6) والآيات بعدها⁽²³⁾.

إن نظرة متأنية لقوام الآيات يعطينا إشعاعا من ضوء يرك به إيداع تناسق هذا النص القرآني موازنا بما قبله في سورتي التكوير والانفطار، ففي التكوير بدئت السورة باثني عشر شرطا متعاطفا، وليس بينها جمل متعاطفة أخرى داخلة في حيز أحد الشروط، ثم يأتي الجواب: (علمت نفس ما أحضرت) تفصيلا لتلك الأعمال.

وفي الانشقاق بدئت السورة بشرط وجملة معطوفة عليه، ثم شرط آخر معطوف على الأول، يعقبه جملتان متعاطفتان داخلتان في حيزه، والجواب محذوف في الشرطين)⁽²⁴⁾.

تنبها هذه الآيات إلى حقيقة الحياة، لتتوجه النفس الإنسانية إلى ربها راضية مرضية يتخيلها الجواب ثوبا أو عقابا، ونلمح دقة النظم القرآني في إثارة (إذا) الشرطية، وما ترشد إليه من تحقق وقوع تلك المتغيرات، حيث ترد العبارة بالماضي لتؤكد كينونتها، وإن كانت أفعالا مستقبلية (انشقت...أذنت...)) وفي تكرار " إذا " ضرب من التوكيد الذي يقتضيه المقام⁽²⁵⁾.

وبنبي التعبير بالمعلوم المطاوع (انشقت) عن التلقائية والطواعية، وعن الفعل في الوقت ذاته، وامتداد قوته وتأثيره.



وقد دفع الكرمانى ما يتوهم من تكرار في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق: 6)، حين ذكر مرتين: فيين أن الأول متصل بالسمة، والثاني متصل بالأرض.

3- تيان أسرار (إذا) في سورة التكوير:

قال عز وجل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭﴾ (التكوير: 1-14).

الانفتاح بـ (إذا) افتتاح مشوق لأن (إذا) ظرف يستدعي متعلقا، ولأنه شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعندما يسمعه يتمكن من نفسه كمال التمكن، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة (إذا).

وتعدد الجمل التي أضيف إليها اثني عشرة مرة، فإعادة كلمة (إذا) بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب، وهذا الإطناب اقتضاه قصد التهويل، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير.

وقد دخلت إذا هنا على اسم وليس على فعل، وهذا الأسلوب لقصد الاهتمام بذكر ما أسند إليها⁽²⁶⁾.



"وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده، الكون المنسق الجميل، الموزون الحركة... المتين الصنعة... أن هذا الكون سينفطر عقد نظامه، وتتناثر أجزاؤه... ويتهيأ إلى أجله المقدر، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق..."

وهذا ما تستهدف السورة إقراره في المشاعر والقلوب، كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة - مهما بدت لها ثابتة - وتتصل بالحقيقة الباقية... حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول.⁽²⁷⁾

تبيان أسرار - الباء - في القرآن الكريم:

قال عز وجل: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُرِّ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (ق: 15-16) هذا مقام يؤكد البعث ببراہین عتیدة من إثبات صفات الله وآثار صفاته.

اختلف العلماء حول "الباء" المتصلة بالضمير هل زائدة أم أصلية، وفي القول في أصلتها لا بد من ذكر دورها، وحتى تكشف اللثام عن دور الباء العزیزة في هذا المقام، نذكر آية أخرى من آيات الذكر الحكيم، وقبل ذلك نشير إلى أن مادة الوسوسة قد تكررت أربع مرات في القرآن الكريم، أحدها الآية التي ذكرناها التي تعدى فيها بـ "الباب" أما الثلاث الآخر فقد تعدى الفعل فيها مرة بـ (في) متمثلاً في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ



النَّاسِ ﴿ (الناس: 5)، وأخرى بـ (اللام) في قوله تعالى: ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهَا
الشَّيْطَانُ ﴾ (الأعراف: 20) وثالثة بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ
الشَّيْطَانُ ﴾ (طه: 120) والملاحظ أنه لما كانت الوسوسة من الشيطان عدي
بغير "البه" ولما كان من الإنسان عدي الفعل بها. وعلى هذا فقد أبانت "
البه" أبلغ إبانة عن شدة التصاق هذه الوسوس بصاحبها، وأنها كائنة في
حضرته، وأنها تسد عليه منافذ قلبه دون سواها ولذلك ناسب تقديم الجار
والمرور (به) على الفاعل (نفسه) (28).

وقد كشفت الآية أن علم الله محيط بهذه الوسوسة الملتصقة بنفس
الإنسان والتي تخالطه ولا تكاد تبين، والله سبحانه وتعالى غلام الغيوب،
وكاشف الدروب، ومطلع على القلوب.

تثني الآيات على سليمان - عليه السلام - بأنه أواب لربه، ونذكر قصته
مع الخيل حين عرضت عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ
الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيَنَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ
حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (ص: 30 - 33) وقع خلاف بين العلماء في البه (مسحا
بالسوق) والقائلون بالأصالة ينجحون إلى أن المسح هو مسح باليد استحسانا
وتكريما لها.



هناك من ذكر آية المسح في قوله عز وجل: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ (المائدة: 6) ليستدل بها على أن المسح ليس للقطع، ونفسر الآية السابقة على أن المسح للسوق والأعناق تشريفا لها، وامتحانا ليعلم سليمان هل فيها من مرض، وإظهارا لمباشرته أكثر الأمور بنفسه في شؤون السياسة والملك⁽²⁹⁾.

أما الآية الأخرى المذكور فيها فعل المسح فهي قوله عز وجل ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ (المائدة: 6) ذكرت في هذه الباء ثلاثة آراء هي: الإلصاق، والتبويض، والزيادة على أنه أسلوب عربي.

نستخلص المعنى الأصلي للباء والتمثل في معنى الإلصاق الذي هو المعنى الأصلي لـ "الباء"، وهذا توافق مثير، وهو أدل على هذا الحب الشديد والانشقاق من النبي سليمان-عليه السلام- على تلك الخيول الجميلة (في الآية الأولى السابقة الذكر) التي تؤدي دورا بالغا في سبيل الله⁽³⁰⁾.

جاءت "الباء" وسط هذا السياق المفعم بروح التوجس والحذر والخوف، وما يطوي من شعور الأمومة الغلاب- معللة لهذا الفعل الدال على شدة أسفها إن أذيع أمرها. وقد أعان حذف المفعول على تصوير هذه المشاعر "المتزاحة" المتباينة المتداخلة الثائرة في قلب الأم الرؤوم.

نذكر في هذا المقام أول ما أوحى للرسول ﷺ في مقام التبليغ والتوجيه الإلهي. قال عز وجل: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: 1).



قال ابن عاشور أن تكون بلاء المصاحبة على أن يكون المجرور في موضع الحال إليك مصاحبا قراءتك بين ضمير (اقرأ) الثاني مقدما على عامله للاختصاص، أي اقرأ ما سيوحى إليك مصاحبا قراءتك اسم ربك⁽³¹⁾.

يظهر جليا قوة هذه البلاء في دلالتها على الاستعانة برب السموات والأرض رب العالمين الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم (لقد كان هذا الوحي الإلهي يوجه النبي - صلوات الله وسلامه عليه- إلى القراءة أولى خطوات طريق الدعوة إلى الله تعالى، وهي ليست مطلق قراءة، وإنما قراءة تستصحب وتلابس وتستحضر اسم الله الأعظم، فهي إذا قراءة تطمئن بها هذه النفس الهالعة الفرعة القالعة في ذلك الركن القصي من الغار اطمئنانا وتفزع به إلى الله تعالى، فيقوى القلب وتركن النفس وتنغمر الروح بفيض اليقين، فلا يداخلها ولا يصاحبها ولا يلابسها إلا اسمه العظيم"⁽³²⁾.

نجد أيضا في موقف آخر وهو موقف الإنفاق في سبيل الله جاءت "البلاء" في مقام الحض على الإنفاق في سبيل الله، وأن تارك ذلك هالك، كما في قوله تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 195) "وفي الأمر بالإنفاق استشارة للقلوب، ودفع لها نحو الخير بالتقرب من الله تعالي وطاعته من خلال ماله... وقوله (ولا تلقوا...) نهى بليغ عن ترك النفقة في سبيله، من خلال النهي عن التسبب في إتلاف النفس بأي وجه من الوجوه، وفي التعبير القرآني من النهي بالإلقاء باليد دلالة على



معنى العجز والضعف والاستسلام فهو فعل العاجز، وفي ذلك شحن لقوى المسلمين نحو الخير والفوز"⁽³³⁾.

أما فيما يخص الباء فقليل تحمل معنى السببية ﴿ تُلَوِّدُ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ ﴾ (البقرة: 195) إما على حذف المفعول، والتقدير: (ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم) ذكر ذلك الراغب (المفردات: 70/ ونقله الزمخشري مضعفا (الكشاف: 1: 119، والرازي، وأبو حيان) التفسير الكبير 5: 136. (وتفسير البحر المحیط: 2: 71) ونسبه المرادي إلى المبرد) الجني الداني، (52) ونقل الزركشي عن الجمهور أنها لا تزداد، وحذف المفعول اختصارا، ونقل في موضع آخر أن المعنى: لا تلقوا أنفسكم بسبب أيديكم (جامع البيان، 2، 205).

فالإلقاء إلى التهلكة في الإنفاق لا يكون إلا بسبب من اليد، إذ هي أدواته، إن المتبع لفعل الإلقاء في القرآن الكريم نجده في الآية السابقة وفي قوله عز وجل: ﴿ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (المتحنة: 1) ولكن الملاحظ أننا لا نجد هذه الباء في قوله مثلا: ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (النحل: 15)

إن هناك في الآية الربانية تناسقا في المشاهد المعجزة أو تناسقا صوتيا لا نجده لو جاءت العبارة القرآنية، (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ)، وهو وجه لا يتأتى في كلام فصحاء البشر، فكيف يتصور تأنيه في كلام الله المعجز⁽³⁴⁾.



مثال آخر الترغيب في الإيمان :

من أسرار البلاء الربانية ورودها في موقف من مواقف الإيمان بالله والترغيب فيه، ونلاحظ هنا في الآية القرآنية الجليلة كيفية مجيء حروف تنبئ عن دلالات لا نجدتها في غيرها، وقال عز وجل: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: 137) تدل البلاء على معنى الملابس، أي ملابسة الإيمان بالمشركين، مثل ملابسة المؤمنين به، وهكذا فالتصاق الإيمان بصاحبه أبعث على الخير وأهدى للصالح وأدعى للفلاح وقوله: (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) وهو حث على صفة الإيمان المماثل لإيمان المؤمنين حقا بهذه النبرة المرغبة وفي جملة الشرط والذي ربط الاهتداء بالإيمان، وجاءت إن لعدم توقع إيمان الكافرين، وهو من جانب آخر حث لهم على الإيمان وحفز لهم عليه...⁽³⁵⁾

- من أسرار البلاء الربانية في الآية القرآنية الآتية :

في مقام المجازاة تشريعا: (مقام الحظ على المجازاة بالعدل حال الاعتداء، وعدم الظلم حتى مع المشركين قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: 194) إن المتمعن في الآية الكريمة يتملكه إحساس مفعم بروح العدل المتمثل في الحظ على مواجهة أعداء الله الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، فجعلت الاعتداء الثاني



مقيدا بالمثل وأتت "الباء" لتحدث فضل معنى لن تجده بدونها، إذ هي للسبب، فالاعتداء يكون بسبب مماثل للاعتداء.

وسمي الاعتداء اعتداء تزهيدا للنفوس في طلبه.

ولا يغفل ما في حرف (الفه) من بيان لسرعة المجازاة وترتيبها فلا تسامح ولا عفو في استيفاء الحدود بل نفرة رادعة للباطل، ونصرة الله وإعزاز للمسلمين.

قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس: 26) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس: 27) جاء الحديث في الآيات الكريمة عن أصالة الباء الموجودة في قوله عز وجل: (جزاء سيئة بمثلها) على أساس ترجيح أن الباء ما بعدها هو الخبر، والتقدير: جزاء سيئة كائن بمثلها، وقد ذكره الفراء على أن (جزاء) مرفوع بـ "الباء" ونقله الطبري، وابن جني والرازي والعكبري، وغيرهم³⁶.

والشيء الملفت للانتباه في هذه الآيات الحكيمة الموازنة الدقيقة، بين المحسنين والمكتسبين للسيئات، ويشكل نسق الآيتين على نمط بنائي خاص جرسا قويا عنيفا مؤثرا جدا، لا نجد إن لم يأت على هذا النحو، من حيث كثرة الحذف وما تحفل به الآيتان من ألوان التقابل البديع المذكورا ومفهوما.



4- تبيان أسرار [أن]:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف 96).

تحدث دراز عن الدور الخطير الذي تلعبه " أن " في الأحداث فلما تفيد توقع الحدث، وترقبه الشوق إليه مما يدفع إلى سرعة حدوثه.

فتأتي في هذا السياق أن مفيدة للبطء والتراخي والتمهل، فنحس بالمجاذبة بين دلالة الآيتين (أن، لما) إثارة للنفس والوجدان، وتوهجاً في الأسلوب، وأن هذا التأخير قد أشعل الشوق إلى تحقيق الحدث واستنفد طاقة النفس، فإذا ما وقع بعد بطء، كان تخففاً من عبء نفسي كبير.

إن " أن " هنا بما أفادته من تمهل وتراخ، اقتضته رحلة البشير، زادت عاطفة الحب أواراً، وأثارت كوامن يعقوب وأشجانه، وجعلت انتظاره ناراً⁽³⁷⁾.

وقد كان للكرماني والاسكافي رأي في ذلك فأثبتوا " أن " دالة على وقوع الجواب في الحال من غير تراخ، وهذا مؤداه إلى أن إلقاء القميص وقع مجيء البشير من غير بطء وتراخ، وكأن ارتداد البصر تكملة للجواب.

فـ " أن " دلالتان متباينتان:

1- إحداهما: تصور التراخي والبطء والتمهل.

2- والأخرى: تصور السرعة والفورية في وقوع الجواب بدون تراخ ولا بطء.



ولا يفسر مثل ذلك إلا في ضوء المشاعر المتزاحمة داخل القلب البشري وما يطويه من رغبات متباينة ورؤى متقابلة.

رأي الرافي في سر أن وما :

من الأمثلة التي ذكرها مصطفى صادق الرافعي لإثبات دلالات الحروف ونذكر ما يلي:

قال عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ﴾ (آل عمران: 159)

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ (يوسف: 96) فإن النحاة يقولون: إن "ما" في الآية الأولى و"أن" في الثانية زائدتان، أي في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم وقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير، لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته.

فإن المراد بالآية الأولى، تصوير لين النبي ﷺ لقومه، وإن في ذلك رحمة من الله، فجاء هذا "المد" في "ما" وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق⁽³⁸⁾.

نلاحظ بعد ذلك السر الخفي في حرف "الباء" في الآية الأولى والذي يدل دلالة قاطعة وقوية على قيمة الرحمة فيه (فبها رحمة من الله لنت لهم).



اعتنى الرازي في التفسير الكبير عناية فائقة بتبيين الفرق بين أن الواردة قصة (لوط) في سورة العنكبوت الآية 33 قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُضَافٌ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

وعلم مجيء أن في قصة إبراهيم في ذات السورة (العنكبوت الآية 31) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فقال: "الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة (إن مهلكوا) وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لأنهم بشروا أولا ولبثوا، ثم قالوا إنا مهلكوا، وأيضا فالتأتي واللبت بعد المجيء، ثم الإخبار بالأملك حسن، فإن من جله ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريثا من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير.

إذ علم هذا فقله ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) يفيد الاتصال يعني: خاف حين المجيء) وفكرة الاتصال وعدمه هذه التي يستند عليها الرازي لعلها مقابل لفكرة التراخي وعدمه، وقد عقب الرازي بقولته المشهورة بأنه: " ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا"⁽³⁹⁾.



قصة موسى عليه السلام :

وردت " أن " في قصة موسى -عليه السلام- وقد استصرخه يهودي " غوي " ميين على عدوله ليقنتله، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَصْحَحْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى اأْتْرِيدُ أَنْ تَقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۗ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (القصص: 18-19) أكد ابن الأثير على أصالة أن وإفادتها التراخي والبطء، ولم تكن مسارعة موسى عليه السلام إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول.

وتوحي العبارة القرآنية الجليلة بحدوث تريت ومهلة زمنية وصعوبة في الاسترسال في القراءة الصوتية للآية، وذلك لتوالي أن مرتين ويفصل بينهما الفعل أراد (أن أراد أن) فيها تريت في أن الأولى والثانية وهذه الدلالة الصوتية المبهرة العظيمة نستخلصها من الأداة أن، وكيفية تواجدها في السياق والمعنى الذي أضافته يعطي إشارات تنبيهية إلى الفكر البشري بحدوث أمر يتطلب مهلة، واستشعار توقف عن الفعل وكأن هناك جدار صد أو مهمل.

وعبرت " أن " في الموضوع الآخر وهو قول المصري: (أتريد أن تقتلني) وهو جواب لا يخلوا من مخاتلة وذكاء، وهو تعبير عن المشاعر المتباينة: استشارة للقتل، وحث عليه من الغوي، ويقظة موسى عليه السلام: (40) فلا ريب أن



زمننا طويلا يستغرق أمثال هذه المشاعر، وكان " أن " حوت زمننا قضاه موسى في التفكي ليأتيه جواب المصري في سرعة شديدة (والله أعلم).

6- تبیان أسرار ثم:

"ثم حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة وفي كل منها خلاف على رأي ابن هشام"⁽⁴¹⁾.

يصور لنا القرآن الكريم مشاهد كثيرة في سرعة حدوث الحركة مثلما نلاحظ هنا ببطء الحركة مع اكتشاف سر من أسرار الحروف ويتضح ذلك في قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم: 48) يعرض في القسم الأول وصول الماء الذي يستغرق هذه الفقرات، ويبين في هذه المراحل: فالرياح تثور، فتثير السحب في السماء- كما يشاء الله- فيتراكم المطر من السماء، فيستبشر به من ينزل عليهم بعد أن كانوا يائسين⁽⁴²⁾.

وانظر كيف يعرض القسم الثاني بعد وصول الماء:

قال عز وجل: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَبُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلَمًا﴾ (الزمر: 21) هكذا في تراخ بـ " ثم " وفي تمهل وبطء، فالله ينزل فلا يختلط بالأرض، ولا بنيات الأرض، إنما يسلك ينابيع، ثم يخرج به زرعاً.... ثم يهيج فتراه مصفراً"



وفي الوقت مهلة لتراه، ثم " يجعله حطاما " " يجعله " وهناك " أصبح هشيما" أو " يكون حطاما" كأنما يصبح بنفسه، أو يكون بلا مصير ولا فاعل، وهنا جعله " حطاما" ثم بقي على هذه الهيئة، وهناك " تذروه الرياح" فلا يبقى له أثر.⁴³

إنه هنا في معرض بيان النعم الإلهية، فبطء عرضها، ولبت صورها وتملي مشاهدتها أجدد بالموقف، ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل.⁴⁴

يأتي طول بعض المشاهد مثيرا لاستغراق النفس فيما تشمل عليه وما تشير إليه، لتصل إلى الحقيقة الدينية الكبرى، حقيقة التوحيد فنذعن بعد معرفة وإدراك.

نلاحظ استعمال " ثم " في سياق آخر من السياقات القرآنية المعجزة ونذكر بعض الآيات في عام العسرة، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 117) وجله القول بزيادة "ثم" في قوله تعالى: (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) لما اختلف في جواب "إذا".

فالقائلون بالأصالة على أن "ثم" هي العاطفة، إما على أن الجواب محذوف وهو المعطوف عليه، وإنما اختلف في تقديره.

فقدره الرضى: ألهمهم الإنابة.



وقدره النيسابوري، تاب عليهم وعلل حذفه لتقدم ذكره⁽⁴⁵⁾.

وفي قوله تعالى: (وعلى الثلاثة) متعلق ما قبله، أي ولقد تاب الله على الثلاثة... وقوله تعالى: (حتى ضاقت)... مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا فيه قلقا وجزعا... (وضاقت عليهم أنفسهم) أي: "قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم".

وجواب "إذا" محذوف مدلول عليه بصدر الكلام كما قالوا، وتصادفنا هنا "ثم" في السياق الآتي (ثم تاب عليهم) العطف فيه على الجواب المقدر. و"ثم" تدل على التراخي الشديد لزمن الكرب واشتداد المكاره، وصعوبة الابتلاء ترقب اليسر بعد العسر، ومواجهة الأعداء حتى جاءهم الفرج، وانداحت التوبة⁽⁴⁶⁾.

ويؤيد الواقع معنى التراخي فقد لبث الابتلاء 50 ليلة.

ولابن يعيش تعليل لمعنى التراخي الكائن في "ثم": لما تراخي لفظها بكثرة حروفها تراخي معناها، لأن قوة اللفظ مؤذنة بقوة المعنى⁽⁴⁷⁾.

وذكر البقاعي أن التعبير بـ "ثم" يمكن أن يكون إشارة إلى عظيم ما قاسوا من الأهوال وما ترقبوا إليه من مراتب الخوف⁽⁴⁸⁾.

وقال ابن عاشور إن "ثم" هنا للمهلة والتراخي الزمني وليست للتراخي الرتبي، لأن ما بعدها ليس أرفع مما قبلها بقريئة السياق⁽⁴⁹⁾.



بالإضافة إلى هذه الآراء في دقة استعمال ثم، فقد ورد رأي يثير العجب والإعجاب إذ يجمع بين المتناقضين وهو دلالة ثم عن المفاجأة والتراخي في وقت واحد.

الهوامش

- (1) - خالد الجندي، شهد الكلمات في رحاب سورة الفاتحة، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط1، ص204
- (2) -
- (3) - محمد حسين علي الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني، دار الرشيد للنشر 1981، منشورات وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية، ص241.
- (4) - فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دراسة تاريخية فنية مقارنة منشأة المعارف بالاسكندرية، ص380.
- (5) - محمد حسين علي الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني، ص242.
- (6) - محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم، دار اليمامة، دمشق، بيروت، ط7، 1999، ج8، ص328-329.
- (7) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية، دار القاهرة، ط1، 2000، ص557-558.
- (8) - فتحي أحمد عامر بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دراسة تاريخية فنية، مقانة منشأة المعارف بالاسكندرية/ ص307، 308.
- (9) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأييد، ص533.
- (10) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأييد المنع، ص537.
- (11) - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة الحسيني، القاهرة، ج2، ص114.
- (12) - الزمخشري، الكشاف عن الحقائق التتزيل وعميون الأقاويل في وجوه التتزيل، دار المعرفة، بيروت، ص147.
- (13) - عمر السلامي، الاعجاز الفني في القرآن الكريم، ص110



- (14) - فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 304.
- (15) - المرجع نفسه، ص 305.
- (16) - فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 306.
- (17) - فتحي أحمد عامر بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 307
- (18) - عبد القادر حسين، البلاغة القيمة آيات القرآن الكريم، دار غريب للطباعة 1998، ص 20 والنشر (جزء عم) القاهرة.
- (19) - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، المجلد 15، ص 72.
- (20) - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، المجلد 15، ص 73.
- (21) - ابن جني، سر صناعة الاعراب، ج 2، 647.
- (22) - هيفاء عثمان عباس فداء، زادة الحروف بين التأيد والمنع، ص 535.
- (23) - نفس المرجع، ص 538
- (24) - هيفاء عثمان عباس فداء، زادة الحروف بين التأيد والمنع، ص 535.
- (25) - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، المجلد 15، ج 30، ص 140-141.
- (26) - سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 6، الأجزاء: 25/30/ ص 37-38.
- (27) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 363-365.
- (28) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 370.
- (29) - المرجع نفسه، ص 371-372.
- (30) - الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 30، ص 436.
- (31) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأيد و المنع، ص 387.
- (32) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأيد و المنع، ص 401.
- (33) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأيد و المنع، ص 404.
- (34) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأيد و المنع، ص 434-436..
- (35) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأيد و المنع، ص 427.
- (36) - المرجع نفسه، ص 631.
- (37) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأيد و المنع، ص 350.
- (38) - الفخر الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي بيروت، ص 62.



- (39) - عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 310.
- (40) - عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 310.
- (41) - ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت 1995، ج 1، ص 135.
- (42) - فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 381.
- (43) - فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص 381.
- (44) - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت 1989، ص 111-121.
- (45) - هيفاء عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين التأكيد و المنع، ص 737.
- (46) - المرجع نفسه، ص 741-749.
- (47) - ابن يعيش، شرح المفصل، تصحيح وتحقيق: جماعة من العلماء، ج 8، ص 96.
- (48) - ابراهيم عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بيروت، لبنان، الدار العلمية، 1999، ج 9، ص 40-41.
- (49) - ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 11، ص 53.